

قانا

مفاده: انه ان قيل لي نقتل طفلاً لتنجو الارض أقول فلتنخرب الأرض وينجو الطفل.

لا يمكن أمة ان تتعسكر كلها كهذه التي تدمرنا الآن ويبقى فيها رقة. لها ان تبني مصانع وتنتج أسلحة ويبقى قلبها ملطخا تداعبه الشياطين. في التراث العبري ليس الإولاد الغرباء وحدهم مقصيين عن المعاملة الحسنة ولكن البالغين أيضا ليس عليهم رحمة. فقد جاء في سفر تثنية الاشتراع: "واذا تقدمت الى مدينة لتقاتلها، فادعها أولا الى السلم، فإذا اجابتك بالسلم وفتحت لك أبوابها، فكل الذي فيها يكون لك تحت السخرة ويخدمك. وان لم تسالك، بل حاربك فحاصرتها، وأسلمها الرب الى يدك، فاضرب كل ذكر بحد السيف. وأما النساء والاطفال والبهاائم وجميع ما في المدينة من غنيمة، فأغتنمها لنفسك... هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جدا والتي ليست من مدن تلك الأمم هنا. وأما مدن تلك الشعوب التي يعطيك الرب إلهك اياها ميراثا، فلا تستبق منها نسمة بل حرّمهم تحريما" (20: 10 - 17).

كذلك في سفر يشوع بن نون: "استولوا على المدينة. وحرّموا كل ما في المدينة من الرجل حتى المرأة، ومن الشاب حتى الشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، فقتلوهم بحد السيف" (20: 6 و 21).

من كان شعب هذه فلسفته ونفذتها في فلسطين عصابة الإبرغون وشترن عصر الانتداب البريطاني يحتاج الى تبشير أي الى التنكر للصهيونية تنكراً كاملاً وإلا كانت الوداعة عنده مشجوبة والرحمة مرفوضة. كل تحركه العسكري تكون فعلته في قانا هي النموذج.

أمام جريمة قانا لا بد من معاقبة مرتكبيها أي لا مفر من لجنة دولية تحقق في مسؤولية اسرائيل لأن المجزرة كانت ضد حقوق الانسان وإغفال العقاب يفسح في المجال للمرتكب ان يقوم بمجازر أخرى متى حلا له ذلك. "ولكم في القصص حياة". الجرحى وأهل الضحايا لهم ألا يصحبوا فريسة الحقد ولكن يجب شفاء الحاقدين بإدانتهم عسى يتوبون.

بعد هذا - وليس قبل هذا - يأتي السلام الذي لا يشفي وحده القلوب الجريحة. اللبنانيون الذين ذاقوا ما لم يذقه العرب في هذه الآونة آخر من وقع السلام ليأمنوا أنفسهم المرة تلو المرة فظائع القصف والدمار والموت، كيف يقوم البلد ولا تتكرر الفاجعة يفترض ان نصب في هذا البلد مجتمعاً موحداً لا انقسام فيه حتى لا تقع اية مدينة أو قرية في ما وقعت فيه قانا. حتى لا تموت الطفولة في القلوب. وهذا يتطلب حساً عالمياً وإحساساً الدول بوجود لبنان، هذا البلد الجميل الوديع الذي لا يطلب شيئاً إلا ان يجتنب اعتداءات متكررة. انها لمصيبة على العالم كله إن صرنا بلداً كله مدمراً.

يجب ان يزول فخر اسرائيل حتى لا يحترق بلدنا. لن تجد اسرائيل راحة ان بكينا بكاء الليل كما قال إرمياء. ينبغي ألا يسير أطفالنا مسبيين ويتامى. ارفع يا رب غضبك عن ديارنا وعزنا بتعزبات روحك فلا يبتلعنا أحد. اشفق علينا يا الله، إله خلاصنا. "انطرح على الأرض الفتى والشيخ". لا تسمح يا رب بأن تهشم عظام شبابنا والأطفال. مراحمك يا رب لا تنتهي. إحفظ لنا الكرامة التي بها نحيا لأننا محبوبك. "حل بنا الرعب والهلاك والدمار والتحطم" (مراثي إرمياء). "الأطفال طلبوا خبزاً ولم يكن من يكسره لهم".

لا تقطع عنا أغانينا فهذا بلد الفرح. لا تصرف وجهك عنا في أيام الضيق هذه. لا تنسنا ربّ وعوّض علينا كل ما خسرنه ونحن نؤمن انك القيامة والحياة. لا تنبذنا الى النهاية ولا تغضب. تعال يا رب، تعال وتعهّد الأحياء الذين احترقوا في قانا والجنوب والضاحية وأهل كل بقعة منكوبة وأعدّ إلينا طفولتنا واعتبرنا بالتوبة اليك أبرياء كأبناء قانا الحبيبة.

المطران جورج خضر

قبل بضع من سنين زرت قانا والدليل الذي كان معي رافقني الى قبور الشهداء الذين قتلتهم اسرائيل في الحادثة المعروفة. قبور مرصوفة الواحد الى الآخر لتشهد على الظلم وعلى صمت الشعوب. هذه المرة رأيت صور الأطفال يحملهم مسعفو الصليب الأحمر. رأيتهم مقتولين في طراوتهم وما قيل أين دفنوا وهل تسلمهم ذووهم الذين قتل بعض منهم ما في ذلك ريب. لأن اسرائيل الجافة لها عداوة مع الطراوة ومع ان تنمو الحياة عند من تسميهم الأمم.

الذين يذكرون المسيح عند امتحانهم يعودون اليه في هذا الطور او ذاك من مسيرته على الأرض. لا بد ان يعرف قارئ ان الكتاب يقول الشيء القليل عن طفولة يسوع التي أحب أن أقرأها في لوقا القائل عن السيد في طفولته: "وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه" (2: 40).

أطفال قانا منعتهم اسرائيل في ان ينمو وان يتقوا بالروح لأنهم من الأمم (غوييم بالعبرية) وسيان ان يحيوا وان يموتوا لأنهم ليسوا من أبناء الموعد. كفى ان ينمو أبناء اليهود وان يتقوا بدنا وعقلا ويتعلموا في الجامعة العبرية في اورشليم - القدس أو غيرها وبتروّضوا على السلاح يذبون به من يعرقل فتوحاتهم.

انت تحب البراعم لشوقك الى الورود وتخشى عليها الاستئصال لحبك اكتمالها. كل منا يبكي على البراعم اذا قصفت. اسرائيل لا تبكي الا على اسرائيل حتى تبقى شاهدة لإلهها الذي في بدء تاريخها كان إله قبيلة، وكان يقهر الآلهة الأخرى. خسارة لأي إله ان يموت أطفال لبنان. وهؤلاء ليس لهم تقنيات يرتقون بها ولن يكون لهم طائرات في بلدهم الصغير. هؤلاء كل وجودهم التصاق بأرض فقيرة. ألم يقل شاعر عبري في العراق قديماً: "يا ابنة بابل الصائرة الى الدمار / طوبى لمن يجازيك على ما جازيتنا به / طوبى لمن يمسك أطفالك / ويضرب بهم الصخرة" (مزمور 137: 8 و 9).

بعد هذه الحرب اللعينة من يعلم اليهود أن يحبوا أطفال الأمم كما يحبون أطفالهم؟ من يكرر لهم قول الناصري: "دعوا الأولاد يأتون الي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات"؟



مشكلتنا الكبرى مع الذين اعتدوا علينا ليست فقط سلام لبنان لسنا نعرف متى يحل او اذا يحل مشكلتهم مع أنفسهم هي القضية. والقضية هي هل يلهمهم الله يوماً على رغم تراث حقد لهم ان يؤمنوا بالطفولة وان يعاملوا البشر جميعاً بطراوة؟ أنا لأنكر على أحد منهم محبته لأولاده. هذا شيء من الحشا. ولست أنكر على اليهودي خارج اسرائيل أو غير مؤسّرل فكرباً ان يحب أولاد الناس. ولكن ماذا اذا غرست هذه الدولة العسكرية قناعة ان الطفل العربي سوف ينمو وانه يحمل طاقة جندي فتخشاه وتتعامل وإياه على اساس هذه الخشية على طريقة الحرب الاستباقية التي تبناها جورج بوش الابن؟ في هذا المنطق القائم عند بعض من المحافظين الجدد في أميركا القتل الاستباقي للأطفال معقول كثيراً. واذا كانت الحرب الاستباقية تحتاج الى الكذب كما حصل في العراق ففي إبادة الاولاد الغرباء هي تحتاج الى حقد.

نحن نحب الأفراد اليهود وفق تراثنا وان اختلفنا في تقدير لاهوتهم. الى هذا ليس للإسلام قضية مع اليهودية ولو كانت له مشكلة مع اليهود في حياة الرسول. ولكن بعامة لم يحظ اليهود بحرية كتلك التي حظوا بها في دار الاسلام ونحن المسيحيين نذكر الحرية البالغة التي كانوا يتمتعون بها في مصر والمغرب. ولكن بيننا وبينهم اليوم قانا وهذه مشكلة لا تحل بسهولة ان لم يتوبوا عنها صراحة أي ان لم يعترفوا ان أولادهم وأولادنا بسواسية. وكان خيراً لهم ان يخسروا معارك من ان يقتلوا طفلاً واحداً في الجنوب. قال هنري برغسون ما